جامعة باجي مختار ـــ عنابة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم اللغة العربية وآدابها

د نجاة عرب الشعبة

nadjettearab@yahoo.fr

محاضرات في مقياس: النص النثري القديم

السنة الأولى ماستر ـ تخصص ـ أدب قديم

السنة الجامعية 2020/2019

فن التّرسل في العصور العربية والإسلامية القديمة

أولا: العصر الجاهلي وصدر الإسلام

1 . الترسل في الجاهلية:

إن وجود الرسائل في أرقى أشكالها وأكملها—أي الشكل التدويني—يرتبط ارتباطا وثيقا بوجود الخط وانتشار الكتابة بين الناس، وتوفُّر المواد التي تُستعمَل فيها عادة، ولو لم يكن الخط لبقي الشكل الشفوي، والآثار الشفوية بطبيعتها سريعة الزوال، إذ ليس في مقدرة الذاكرة أن تحفظها وترويها للأجيال. فبدت الحاجة إلى الكتابة وتخليد الآثار بها .

الكتابة في اللغة مصدر «كتب»، يقال: كتب، يكتب، كتبا وكتابا، ومعناها »الجمع»، و سُمّي الخط كتابة، لجمع الحروف بعضها إلى بعض. وقد تُطلَق الكتابة على العلم، ومنه قوله تعالى: (أَمْ عِندَهم الْغَيْبُ فَهم يَكْتُبُونَ)أي يعلمون. وجاء في «مصادر الشعر الجاهلي»:«إن عرب الجاهلية قد عرفوا الكتابة بالحروف العربية منذ مطلع القرن الرابع للميلادى، وكتبوا بهذا الخط العربي ثلاثة قرون قبل الإسلام على أقل تقدير(1)

ومن البراهين التي تدلّ على وجود الكتابة بين الجاهليين ومعرفتهم بها، ورود بعض المفردات في أشعارهم أو كلامهم واستعمال الألفاظ التي تدلّ على الكتابة مثل «القلم» ،و«الدواة »، و«المداد»، و«اللوح»، و«الصحف«، و«الكتب»، و«العسيب»، و«الرق» و«الكتاب»، و«الزبور» وغيرها. أما أدوات الكتابة في العصر الجاهلي فكانت على ضربين؛ الأول:المواد التي كانوا يكتبون عليها، والثاني: المواد التي كانوا يكتبون بها.

والمواد التي كانوا يكتبون عليها ضروب شتى، منها: الجلد و كانوا يسمّونه «الرق» و«الأديم»، و«القضيم .«و قد ورد ذكرها في الشعر الجاهلي، كقول طرفة بن العبد:

كسطور الرق رقَّشه بالضحى مُرقِّشٌ يَشِمُه

والقماش- وهو إما حرير وإما قطن، ويطلقون على الصحف إذا كانت من القماش«المهارق»؛ ومفردها«المهرَق « وهذا الضرب من مواد الكتابة يحتاج إلى إعداد خاص، فكان نادرا غالي الثمن ولذلك كانوا لا يكتبون فيها إلا الجليل من الأمر- مثل كتابة الدين، أو العهود ونحوها-. كما قال الحارث بن حلزّة اليشكري:

واذكروا حِلف ذي المِجازِ وما قُدِّم فيه العهودُ والكُفَلاءُ

حَذَ ر الجورِ والتَّعَدّي وهل ينـ قصُ ما في المهارق الأهواءُ؟

والنبات- وأشهر أنواعه؛ «العسيب» وجمعه «عسب»، وهو جريدة النخل المستقيمة يكشَطُ خوصُها . فمن الشعر الجاهلي الذي ورد فيه ذكر العسيب قول امري ء القيس:

لمن طَلَلٌ أبصرتة فَشجاني كخطّ زبورٍ في عسيبِ يمان

والعظام- و أشهر أنواع العظام التي كانوا يكتبون عليها «الكتف» والأضلاع وكان يكتَب عليها الوحي. واستعمل الجاهليون كتف الحيوان – وهو عظم عريض في أصل كتف الحيوان –للكتابة عليه، و« قد كتب عليه كتبة الوحي،... و لما كانت العظام مادة مبذولة ميسورة في استطاعة الكاتب، الحصول عليها بغير ثمن، وهي صالحة للكتابة بكلّ سهولة على شكلها الطبيعي، أو بعد صقل وتشذيب قليلَينِ ،لذلك استعملها الكتّاب بكثرة، فكانت مادة مهمة استعملها كتبة الوحي في تدوين القرآن[2] «.و لقد بقي العظم مادة من مواد الكتابة حتى العصر العباسي الأول.

ومن الأدوات الأخرى نذكر : الحجارة، والورق، والقرطاس- وهو برد مصري استعلمت للكتابة عليها، والجمع قراطيس. وقد وردت لفظة قرطاس وقراطيس في القرآن الكريم وفي الشعر.

هذا فيما يتعلق بالمواد التي كان العرب يكتبون عليها كتاباتهم. وأما ما يُكتب به، فهو القلم والحبر.

-1القلم:

هو من أدوات الكتابة المذكورة عند الجاهليين، وقد ذكر في القرآن الكريم، وأُقسم به في سورة القلم وعُظِّم شأنه في سورة العلق. وذلك إظهارا لخطر القلم، وثمرات الأقلام في الحضارة الإسلامية منذ الوهلة الأولى، ولبيان قيمته في التعليم عند البشر، وهو مرتبط أصلا بالخط الذي كان بحد ذاته نقلة نوعية في الفكر الإنساني. ولولا الخط والقلم لما حُفظت آثار الماضين.

ولفظة القلم من الألفاظ المعربة عن أصل يوناني، فهو«قلاموس» في اليونانية، ومعناها«القصب»،لأن اليونانين اتخذوا قلمهم منه[3] .

و قد ذكره الشعراء في قولهم، كقول عدي بن زيد:

ما تَبينُ العينُ من آياتِها غيرَ نؤي مثلَ خطٍّ بالقلم

2-الحبر

يعرَف أيضا بالدواة و المداد، ويصنع من مواد متعددة تترك أثراً في المادة التي يكتب عليها وقد ذكر في شعر الجاهليين كما قال عبدالله بن عَنَمة:

فلم يبقَ إلاّ دمنةٌ ومنازلُ كما رُدَّ في خطّ الدواة مدادُها

موضوعات الكتابة في العصر الجاهلي:

موضوعات الكتابة في العصر الجاهلي كانت كثيرة متنوعة، وقد كان القوم آنذاك يكتبون كثيراً من شؤون حياتهم وألواناً متعددة من الموضوعات التي يفرضها عليهم نشاطهم العملي أو العلمي والوجداني. والعرب استخدموا الكتابة في العصر الجاهلي لأغراض سياسية وتجارية ولكنهم لم يخرجوا بها إلى أغراض أدبية خالصة، ولا توجد في كتاباتهم صورة فنية[4] .

وأول هذه الموضوعات التي كان عرب الجاهلية يدونونها، الكتب الدينية؛ ولعل الموضوع الثاني الذي كان عرب الجاهلية حريصين على كتابته، هو كتابة العهود والمواثيق، والأحلاف التي يرتبطون بها فيما بينهم أفرادا وجماعات.

والموضوع الثالث الذي لعله يكون أكثر الموضوعات اتساعا، هو الصكوك التي كان عرب الجاهلية يكتبون فيها حساب تجارتهم وحقوقهم على غيرهم.

ولما كانت الحياة الاقتصادية تأخذ المكانة الأولى بين هموم العرب آنذاك، وكان بعضهم قد اتخذوا التجارة مصدراً للرزق، وهي بحاجة إلى الكتابة لتقييد حساباتهم، أو صكوك البيع والشراء، أوالدين والوفاء به. فقد انتشر هذا النوع من التقييد بين التجار منهم خاصة لحفظ حقوقهم على الناس، إذ لا مجال في مثل هذا النوع من المعاملات للمشافهة، مهما بلغ أحد الطرفين من الثقة بالطرف الآخر، والأمانة، أوقوة الذاكرة. ومما وصل إلينا من أمثال هذه العقود، نص واحد ذكره ابن النديم، إنه كان في خزانة المأمون بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد أدم ونصُّه: «ذكر حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة على فلان بن فلان الحميرى من أهل وزل صنعا، عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة، ومتى دعاه بها أجابه، شهدالله والملكان [5] .«و بما أن مكة كانت مركزاً تجارياً وكان كثير من القوم في ذلك الوقت تجاراً فكان من الطبيعي أن يكثر عندهم هذا الضرب من الكتابة كي يحفظوا به حقوقهم.

والموضوع الأخير الذي كان شائعاً بينهم آنذاك، هو كتابة الرسائل بين الأفراد يحملونها أخبارهم ويفهمونها ما تتطلبه شؤون حياتهم.

ـ الترسل في العصر الجاهلي:

أ– المعنى اللغوي العام للكلمة:

ورد في المعاجم العربية قولهم: ترسَّل في قراءتة؛ إذا اتأد وتمهل وتوقّر فيها أو رتلها، والترسل في الكلام؛ التوقر، والتفهم، والترفق من غير أن يرفع المرء صوته شديداً. والترسل في القراءة والترسيل واحد : وهو التحقيق بلا عجلة. والترسل؛ 1– مصدر ترسل: أ–أنشأ رسالة ب– أتي بكلامه مرسلاً غير مقيد بقافية أو بسجع، –2فن انشاء الرسائل.

ب– المفهوم الاصطلاحي الخاص:

ورد استعمال كلمة "الترسل" في كتابات الأدباء، والنقاد، والبلاغيين، في القرنين الرابع، والخامس الهجريين على وجه الخصوص بمعني كتابة الرسائل، وكانت أقدم اشارة صريحة إلى هذا الاستعمال بهذا المفهوم الاصطلاحي الذي يدلّ على هذا النوع، تلك التي وردت عند "ابن وهب الكاتب"من القرن الرابع، حيث يقول: «الترسل من: ترسلت، ترسلا وأنا مترسل، كما يقال: توقفت بهم، أتوقف، وأنا متوقف. ولا يقال ذلك إلا فيمن تكرّر فعله في الرسائل. ويقال لمن فعل ذلك مرة واحدة: أرسل، يرسل، إرسالا، وهو مرسل، والاسم الرسالة .أو راسل، يراسل، مراسلة، وهو مراسل، وذلك إذا كان هو ومن يراسله قد اشتركا في المراسلة [6] .«ونفهم من هذا القول، بأن معنى الترسل يكون كتابة الرسائل بكثرة ويكون هذا النوع الادبي عادة في دواوين الدولة خدمة الخلفاء والوزراء و الولاة والمتصرفين في إدارة شؤون الخلافة والمجتمع في شتى المناصب الرفيعة.

وقد استعمل لفظ" الترسل" في القرن الخامس الهجري، مصطلحاً دالا على مفهوم "كتابة الرسائل "، كما قال المرزوقي:« إن المقصود من الترسل هو "كتابة الرسائل"، إذ كان مورده على أسماع مفترقة من خاصي وعامي، وأفهام مختلفة من ذكي وغبي، و للمترسل أمور لابدّ من مراعاتها: منها تبيين مقادير من يكتب عنه وإليه حتى لا يرفع وضيعا ولا يضع رفيعا، وأن يعلم أوقات الإسهاب والتطويل، والايجاز والتخفيف، فقد يتفق ما يحتاج فيه إلى الإكثار حتى يستغرق في الرسالة الواحدة أقدار القصائد الطويلة ويتفق أيضا ما تغني فيه الإشارة ويجري مجرى الوحي في الدلالة[7] .«وفي القرن الثامن الهجري ألّف «شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي» (م 725

هـ)، صاحب ديوان الإنشاء بدمشق، كتاباً تحت عنوان «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» ومضمونه يدور حول كتابة الرسائل الديوانية.

وفي أوائل القرن التاسع للهجرة ألّف «القلقشندي» (م 821هـ)كتابه الضخم «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» في هذا الموضوع، وكانت التسمية الغالبة على كتابة الدواوين في عصره هي صناعة الإنشاء، والترسل والمكاتبات أعظم كتابة الإنشاء وأعمها من حيث إنه لا يستغني عنها ملك ولا سوقة وهو يرى أن المقصود الأعظم من النثر هو الخطب والترسل.

وإن أبرز المعاني اللغوية لكلمة الترسل، هو التمهل، والترفق، يكون ذا صلة عميقة وقوية بجوهر المعنى الإصطلاحي للترسل، أي كتابة الرسائل وفن إنشائها، إذ إن هذا المعنى يحتوي ذلك المعنى اللغوي، لأن كتابة الرسالة يغلب عليها أن تتسم بتمهل وترفق من الكاتب.

الرسائل الجاهلية:

أ– وجودها:

عرف الإنسان منذ اكتشافه الرسائل وسيلة للاتصال والإبلاغ عن بعد، ثلاثة أشكال للتعبير عن مضمونها وإبلاغه إلى الآخر. وتمثل هذه الأشكال، ثلاث مراحل تاريخية أساسية مرت بها الرسائل في طريق تطورها.

واستعمال الرسائل بأشكالها المختلفة، لازمة من لوازم الحياة التي لا يمكن الفكاك منها، فالكتابة عرفها العرب في العصر الجاهلي وكانت بينهم رسائل، لكنها ضاعت لأسباب عديدة؛ منها: ضعف انتشار الكتابة، وندرة أدواتها، وقلة استعمالها، مما يضعف الاعتماد على الكتابة لتكون أداة عملية سهلة لكتابة الرسائل وتبادلها في المجتمع الجاهلي، ومنها خلو الكتابة العربية في الجاهلية من النقط والإعجام، مما كان يدعو الكاتبين إلى اعتماد الإيجاز في الكلام، فهذه العوامل أدت إلى قلة استعمال الرسائل المدونة.

وقد شكّ بعض الباحثين الذين تطرقوا إلى دراسة النثر الجاهلي كـ «طه حسين» الذي ينفي كلية وصول أي نموذج من النثر الجاهلي [8] .و«زكي مبارك» حيث يقول: «إن أكثر ما نُسِب إلى الجاهليين غير صحيح «.ويواصل كلامه ويقول في موضع آخر: «والخطب والوصايا والرسائل التي نُقلت إلينا على أنها جاهلية هي موضع شك[9] .«

ب– أشكالها: عرف الجاهليون جميع أنواع الرسائل، وهي: الإشارية، والشفوية، والتدوينية. نشير هنا إليها بصورة موجزة.

أ– الرسائل الإشارية:

قد عرفت الأمم القديمة والحديثة أنواعا شتى من الإشارات، واستعملها الأفراد وسيلة من وسائل الاتصال والإبلاغ والتفاهم وتُعدّ الرسائل الإشارية من أقدم أشكال الرسائل من الناحية التاريخية وكانت هذه الرسائل عند العرب على شكلين؛ الأول: الشكل المادى– وكان من أبرز أنواعه إشعال النيران في أعالي الجبال وعلى المرتفعات المشرفة، اعلاماً بشيء ما يتفق عليه عادة بين طرفين؛ يكون أحدهما مرسِلاً والآخر متلقياً، فإذا أشعل المرسِل هذه النيران، فهم منه المتلقي المعنى المصطلح عليه بينهما.

وروي أن يوما معدودا من أيام العرب يُعرَف بـ «يوم خزازى»، واجتمعت قبائل ربيعة ومضر، وعليها كليب بن ربيعة التغلبي، فتوافوا بخزازى–وهو اسم جبل–لقتال جيش من حمير يقوده صهبان. فوجه كليب السفاح بن عمرو أمامه، وأمره إذا التقى بالقوم أن يوقدوا نارا علامة جعلها بينه وبين صهبان، فسار السفاح ليلا حتى وافى معسكر الملك بخزازى فأوقدوا نارا، فأقبل كليب في المجموع نحو النار، فوافاهم صباحا، فاقتتلوا فقتُل الملك صهبان، وانفضت جموعه [10] . وتعدّ النار في الليل من أهم الرسائل البصرية، ولذا كان أجواد العرب في الجاهلية يوقدون النار على شرف من الأرض ليهتدي بها الساري إلى بيوتهم ليَفْرُوه و يقوموا بحقه من الضيافة.

والثاني– الشكل اللغوي الذي يعتمد الرمز وسيلة لنقل معانية، وهو من أنواع الإشارة، إذ يكون ظاهر الكلام فيه عاديا ساذجا، بل يدل أحيانا على هذيان المرسل إلا أن يكون مضمونه عميقا ويحتاج إلى رجل فطن ليستخرج منه المغزى المراد به.

2–الرسائل الشفوية:

أتى هذا الشكل مرحلة تالية بعد الشكل الإشاري، واتسع في غياب الخط والتدوين وموادهما، لأنه يعتمد بطبيعته على الألفاظ اللغوية التي تؤلف فيما بينها كلاما مفهوما يحمله رجل بعد أن يحفظه من المرسل ليبلغه إلى المرسَل إليه بنصّه الحرفي الذي قاله المرسِل أو معانيه الجوهرية التي أرادها المرسِل إن أمكن، وهذا أمر نادر الوقوع عادة. وعرف العرب نوعا من التاريخ الشفهي، فقد كانت القبائل تروي أيامها، وحروبها وانتصاراتها لتفخر بها على القبائل الأخرى. وكانت الرسائل النثرية

الشفوية أكثر حظا في الدوران بين الناس بسبب قلة انتشار الرسائل المدونة وشكوك الباحثين في صحة تلك الرسائل المدونة. والقاعدة في نقل رسائل ذلك العصر كانت المشافهة، ولا شك في أن المشافهة لا تكفي لحفظ النصوص النثرية ونقلها من جيل إلى جيل، لصعوبة ذلك على الذاكرة، ولاختلاطها بالكلام اليومي للمرء، فأقبل العرب إلى كتابة الرسائل على شكلها التدويني.

3-الرسائل التدوينية:

يعد هذا الشكل، المرحلة الثالثة في تاريخ تطور وسيلة الإبلاغ من طريق الرسائل، ولابد من أن يكون ظهوره مرافقا للبدايات الأولى لنشأة الخط، وازدهار استعماله وموافقا لاختراع الإنسان مواد الكتابة التي تيسّر وضع هذه الوسيلة المهمة في خدمة التواصل والتفاهم المشترك بين البشر أفراداً وجماعات، ومن المسلم به أن الرسائل التي وصلت إلينا من هذا العصر تكون خلاصة لمضمون الرسائل الشفوية وهذا الأمر يخرجها من نوع الوثائق المؤكدة التي قد تنفع في التاريخ للعصر الذي نسبت إليه. يضاف إلى ذلك عدم الكتابة آنذاك ولذلك قد سقط عدد كبير من الرسائل في ذلك العصر إلا ما جمعه أحمد زكي صفوت في كتابه وسماه جمهرة رسائل العرب.

وظلت الرسائل المدونة أطول بقاء من الرسائل الشفوية ويمكن روايتها ونقلها من جيل إلى جيل، لأن الكتابة كفيلة بحفظها، وهي لذلك أدق رواية وأوثق مضموناً من الشكل الشفوي.

إذن كان الترسل العربي موجوداً في العصر الجاهلي وبأسمى أشكال التعبير الأدبي آنذاك وهو الشعر. وكانت الرسائل الشعرية تمثل الوجه الحقيقي الأصيل للترسل الجاهلي، إذ غلبت الأمية في الجاهلية على العرب، فاعتمدوا لذلك في تواصلهم وتفاهمهم عن بعد على ما سهل قوله وحفظه وتداوله في البوادى والحواضر على حد سواء، فكانت الوسيلة المثلى لتحقيق هذه الغاية آنذاك هو الشعر الذي ذكر القدماء منزلته الرفيعة في الحياة الثقافية للعرب.

وكان للعرب في الجاهلية بعض التقييدات الشعرية القليلة، إلا أنها لم تتحول إلى حركة تدوين حقيقي منظم للتراث الشعري آنذاك، وأبرز هذه التقييدات- تقريباً- كانت المعلقات. وسبق القول عن وجود الكتابة بين الجاهليين، لكن هذا لا يعني بأن كل عربي آنذاك كان يعرف الكتابة وإنما الكتابة كانت أمرا معروفا عندهم إلا أن الأمية كانت اكثر شيوعا و انتشارا. فقد عُرف بينهم من يكتب لهم ولو بكتابة ساذجة وكان العرب قبل الإسلام يهتمون بالكتابة واستعملوها في شؤون الحياة، كتدوين العقود والمواثيق، والوثائق السياسية والتجارية وشؤون الأدب والشعر وكل جوانب

الحياة، فلم تكن الأمة أمية بمعنى أنها تجهل القراءة والكتابة، فإن نزول القرآن بالعمق الفكري والأسلوب البليغ يبيّن أن هناك أمة لديها القدرة على فهمه وحمل رسالته.

2 ـ الترسل في عصر صدر الإسلام:

هو العصر الثاني من عصور اللغة العربية. وتتحدد بداية هذا العصر الأدبي بظهور الدعوة الإسلامية وانتشارها وتوحيد القبائل العربية المتنافرة ويفتتح هذا العصر ببعثة النبي محمد (ص) في أوائل القرن السابع الميلادي وبالتحديد عند استقرار دولة الإسلام في المدينة سنة 622م، بداية التاريخ الهجري إلى انتهاء الخلافة الراشدة سنة (661م= 41هـ).

إذن فهو عصر قصير المدة، إلا أنه فائق الأهمية؛ لما تم فيه من أحداث أثرت في مجرى الحياة العربية وتطورها، فكان ذلك خاتمة للعصر الجاهلي وفاتحة للعصر الجديد في تاريخ الأدب العربي.

ـ أثر الإسلام في الحياة الأدبية:

أحدث ظهور الإسلام تحولاً جذرياً في حياة الأمة العربية ونقلها من طور التجزئة القبلية إلى طور التوحد في إطار دولة عربية تدين بالإسلام وتتخذ القرآن الكريم مثلاً أعلى، وكان لابد لهذا الحدث العظيم من أن يعكس صداه القوي في الحياة الأدبية لهذه الأمة.

وكان للإسلام اثر كبير في ازدهار النثر العربي ولاسيما الخطابة والترسل، و قد دعا قيام الدولة الإسلامية واتساع سلطانها إلى الاستعانة بالكتابة والكتّاب، وكانت الكتابة محدودة الانتشار في العصر الجاهلي، فاتسع لها المجال في صدر الإسلام. فإن قيام الدولة الإسلامية استدعى وجود كتّاب يوجهون الرسائل إلى العمال والقبائل في مختلف أقطار الدولة، فكان للرسول (ص) كتّاب كما كان لخلفائه وولاتهم من بعده كتّابهم.

الكتابة في صدر الإسلام:

قد انتشرت الكتابة العربية مع انتشار الإسلام وخرجت من الجزيرة العربية في كل الأنحاء.ولقد ساعد النبي(ص) على نشر الكتابة وتعليمها، فبعد غزوة بدر وافق على اطلاق سراح كل أسير تلقاء أن يعلم الكتابة والقراءة لعشرة من صبيان المسلمين. وجعل فدية أسرى بدر أن يعلموا المسلمين الكتابة. وأظن أن هذا الأمر دليل على وجود مجموعة كبيرة من الأسرى يعرفون القراءة والكتابة، وأنها– الكتابة– كانت شائعة بين العرب قبلها.

وكانت الكتابة في عهد الرسول (ص) تشمل شيئين: أولهما: وهو الأهم، كتابة الوحي، ويخبرنا الجهشياري بأن: «علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان كانا يكتبان الوحي، فإن غابا كتبه أبي بن كعب، وزيد بن ثابت [11] .«و الثاني: تدوين الرسائل التي كان الرسول (ص) يكتبها للملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام، وكذلك كتابة العهود والمعاهدات. وكان الرسول (ص) والخلفاء الراشدون من بعده يستخدمون الكتابة في شؤونهم بعد أن ازدادت الدواعي إليها في شتى الأغراض الدينية والسياسية والإخوانية وغيرها، واستجدت أحداث تطلبت قدراً كبيرا من الرسائل، وبخاصة تلك الأحداث التي صاحبت الدعوة إلى الدخول في الإسلام. واقتضي تبليغ الدعوة ونشرها من الرسول (ص) مكاتبة القبائل والملوك العرب والأعاجم، وعقد العهود والمواثيق مع عدد منهم. فارتقت الكتابة واتسع نطاقها وشاعت كثيراً حتى غدت الفن الأدبي الأكثر أهمية وانتشاراً. و نهض فن الرسائل بدور كبير مع تطور حياة المسلمين الدينية والعقلية والاجتماعية و السياسية. فنرى أن الكتابة تطورت تطوراً واسعاً في هذا العصر، فقد تعددت الموضوعات إذ إن أدب الرسائل كان وليد الحاجة، ولذا تنوعت موضوعاتها تبعاً لتلك الحاجة. وازدادت الحاجة إلى الكتابة للتطور الذي رافق الحياة الإسلامية الجديدة في آفاقها السياسية والاجتماعية والفكرية. فأصبحت الكتابة من الوسائل المهمة لنشر الدعوة الإسلامية ومن الدعائم الأساسية لتنظيم المجتمع الإسلامي وبنائه.

ميزات الكتابة في صدر الإسلام

من الظواهر الإسلامية- في كتابتهم- وجود كلمة «بسم‌الله» على المسكوكات الإسلامية وقد كان أول من افتتح الكتابة بها هو رسول الله (ص)، إذ كان يفتتح الكتاب بقوله: «باسمك اللهم» ثم تحول فافتتح الكتاب ببسم الله.

روي عن الشعبي«أن رسول الله (ص) كتب أربعة كتب، في الأول: باسمك اللهم، فنزلت «هود» و فيها «بسم‌الله مجراها و مرساها» و كتب في الثاني «بسم‌الله «فنزلت بنو اسرائيل و فيها «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن» فكتب في الثالث »بسم‌الله الرحمن» ثم نزلت سورة النمل وفيها: «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم[12] .««

الرسائل في العصر النبوي: لقد أصبحت الرسائل وسيلة مهمة لأداء حاجات الرسول (ص) السياسية والدينية، فاتخذها منهجاً قويماً واعتمدها أسلوباً صحيحاً لنشر مبادئ دعوته. فشرع يكتب الرسائل إلى العرب في الجزيرة وما جاورها يدعوهم إلى الإسلام كما راسل الملوك الأعاجم. وكانت

الرسائل النبوية تعالج موضوعات تشريعية وتوجيهية، لها صلة بالدين الجديد، فشرع النبي (ص)يبعث الرسائل المختلفة يشرح فيها الأصول والأحكام والسنن، ويبين فيها حقوق المسلمين وواجباتهم، ويوضح فيها- تلك الرسائل -أصول الفرائض وأحكامها.

ـ موضوعات الرسائل النبوية:

يمكن تصنيف الرسائل النبوية حسب الموضوع الذي أنشئت الرسالة من أجله إلى الأصناف التالية.

رسائل الدعوة إلى الإسلام، رسائل تشريعية توجيهية توضح الفرائض والأحكام، رسائل النبي إلى بعض أصحابه في أمور شخصية وإلى غيرهم في أمور مختلفة.

أ- رسائل الدعوة إلى الإسلام:

ظهر هذا الضرب من المراسلات النبوية بعد أن قويت أركان الإسلام وخاصة بعد هدنة الحديبية، فاتجه الرسول إلى تثبيت الدولة الإسلامية وبنائها، فيدعو العرب وغيرهم للدخول في الإسلام. ويمكن تقسيم هذا الضرب من الرسائل النبوية إلى صنفين: 1- رسائل موجهة إلى رؤساء القبائل العربية 2- رسائل موجهة إلى الملوك الاعاجم.

ب- رسائل تشريعية دينية:

هذه الرسائل لون آخر مما أملاه الرسول على كتابه وأرسله إلى معتنقي الإسلام ليوضح لهم سنن الدين الجديد وأحكامه ويشرع عبرها أصول الصلاة وأحكام الزكاة ويحدد مقادير الجزية لأهل الكتاب ويبين فيها كثيراً من الأحكام والأصول، والفروع.

ج- الرسائل النبوية الخاصة:

وهذا لون آخر من الرسائل النبوية اتسمت بطابع خاص ميزها عن مكاتباته الأخرى. وقد تناولت هذه الرسائل موضوعات شتى وعرضت لأمور كثيرة متباينة، مثل ما كتب إلى عماله وأمراء سراياه. وقد تفاوتت تلك الرسائل في مواضيعها وأغراضها. وكان غرض تلك الرسائل تفقيه العمال بأمور الدين وسياسة الرعية وجباية ما عليهم من صدقة أو جزية وغير ذلك.

خصائص رسائل النبي (صلى الله عليه وسلم)

تتميز الرسائل النبوية بلغتها المترسلة وميلها إلى الإيجاز والسهولة مع البعد عن الإطناب والمبالغة، إذ يعتمد على اللمحة والإشارة دون التفصيل والإسهاب، وكانت بعيدة عن التّكلف، خالية

من عبارات التفخيم، ولها أوضاع خاصة قلما تعثر عليها في غيرها من الكتب، وتتابع في كثير من عباراتها بعطف أو غير عطف دون تكلّف للتعادل بينها.

ويشير «محمد كرد علي» إلى سبب ذلك حيث يقول في كتابه: " كان الرسول يتوخى إذا كتب لغير العرب أن يوجز القول ويقلل من اللفظ الذي لا يتفهمه كل إنسان حتى يسهل نقل كلامه إلى ألسن من كتب إليهم من غير العرب، كما كان إذا خاطب قبائل من قريش، أو كاتبهم يستعمل ألفاظا مألوفة لهم لا يعرفها القرشيون، ذلك لأن مقصده الإفهام، والبليغ من الكلام ما فهم وأبقى في النفس أثرا"[13] .

الرسائل في العصر الراشدي:

في عهد الخلفاء الراشدين قد ظل أدب الرسائل غالباً امتدادا للمكاتبات النبوية، إذ بقيت الرسائل في هذا العصر متأثرة بتلك التيارات المختلفة منذ فترة مبكرة، إضافة إلى ما استجد من أحداث خطيرة بعد وفاة الرسول (ص) وقد ظل صدى تلك المؤثرات واضحا في مكاتبات هذا العصر، ومميزا له عن سواه من ضروب الأدب الأخرى.

ومن ألوان الرسائل التي شاعت في هذا العصر بسبب كثرة الفتوحات الإسلامية، الرسائل الشخصية الإخوانية. وقد شاع هذا اللون من المراسلات لتدفق كبار الصحابه وغيرهم من الأجناد الذين ابتعدوا عن مركز الخلافة إلى تلك الأمصار المختلفة ارتباطا بالخليفة أو الحاكم.

والمعروف أن عمر كان أول من دوّن الديوان من العرب في الإسلام .فعلى أثر الفتوحات، وبعد أن كثرت الأموال التي ترد إلى الخلافة، أنشأ عمر بن الخطاب أربعة دواوين و هي: 1- ديوان الخراج و الجزية، أو ديوان الجباية الذي يهتم بستجيل الأموال الواردة إلى الخلافة وكيفية التصرف بها 2- ديوان الجند وهو الذي يهتم بتسجيل المحاربين و صرف نفقاتهم 3- ديوان العطاء أو ديوان المال و عمله الأساسي توزيع الاموال على الرعية. 4- ديوان الإنشاء أو ديوان الرسائل والذي يهتم بالمكاتبات وحفظ الوثائق الرسمية[14] .

لفظ ديوان وتطور مدلوله

الديوان لغة: الدفتر يُكتب فيه اسماء الجيش وأهل العطاء، وجمعه دواوين.

الديوان اصطلاحا:

اختلف الباحثون في أصل هذه اللفظة، فقد ذهب أكثرهم إلى أن لفظ «ديوان «غير عربي، وقد أكد ذلك الأصمعي فذكر أن الديوان لفظ عجمي كما أشار إلى ذلك الصولي، إذ يرى أن الديوان «اسم فارسي تكلمت به العرب فقالوا دِيوان (بكسر الدال) ولم يقولوا دَيوان كما قالوا دِيباج ولم يقولوا دَيباج[15] .

ولقد ذهب البعض إلى أن لفظ «ديوان» عربي، إذ يقال «دونته أي أثبتته» و إليه يميل كلام سيبويه وقد ذكر القلقشندي نقلا عن «النحاس» في صناعة الكتاب قوله، والمعروف في لغة العرب أن الديوان: الأصل الذي يرجع إليه ويُعمل بما فيه.

لقدأطلق لفظ «ديوان» أول الأمر على السجل الذي يثبت فيه أسماء الجند والمقاتلة حسب قبائلهم ومقدار أعطياتهم، وما ثبت فيه أيضا من أموال الفيء وغيره. ثم صار هذا اللفظ يطلق بعد ذلك على سجلات الحساب العامة، ويؤكد ذلك ما طبقت شهرته الآفاق من محاولة تعريب تلك الدواوين- أي السجلات- التي كانت تكتب باللغات الأجنبية، ونقلها إلى العربية في عهد عبد الملك. ولقد تطور مدلول هذا اللفظ فصار يطلق حينا على الموضع الذي توضع فيه تلك السجلات وذكر الماوردي:«الديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال[16] «.

ديوان الإنشاء (الرسائل)، ذكر«القلقشندي» أنه اسم مركب من مضاف وهو ديوان، ومضاف إليه وهو الإنشاء، فإضافة الديوان للإنشاء تحتمل أمرين: أحدهما؛ إن الأمور السلطانية من المكاتبات والولايات تُنشأ وتُبتدأ منه. والثاني؛ إن الكاتب ينشيء لكل واقعة مقالا، وقد كان هذا الديوان في الزمن المتقدم يعبر عنه بـ (ديوان الرسائل) «تسمية له بأشهر الأنواع التي تصدر عنه، لأن الرسائل أكثر الأنواع الكتابية وأعمها وربما قيل «ديوان المكاتبات». ثم غلب عليه هذا الاسم واشتهر به، هذا الديوان أول ديوان وضع في الإسلام وذلك أن النبي (ص) كان يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصحابة ويكاتبونه وكتب إلى من قرُب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، وبعث إليهم رسله بكتبه، مثل رسائله التي كتبها إلى الملوك الأعاجم وهذه المكتوبات كلها متعلقة بديوان الإنشاء[17] .

الرسائل في عهد عمر وعثمان:

شهدت خلافة عمر بن الخطاب ازدهارا واسعا لفنون الرسائل، فكثرت مكاتباته إلى قادته وولاته وعماله وقضاته، ومنهم أبو موسى الأشعري، وأنس بن مالك. وكان عمر أول من قرّر التاريخ من الهجرة، لأن أبا موسى كتب إليه: إنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ- وكانت العرب تؤرخ بعام الفيل-فجمع عمر الناس للمشورة، فقال بعضهم:أرِّخ بمبعث النبي وقال بعضهم بمهاجره، فقال عمر: لا، بمهاجر رسول الله فإن مهاجره فرق بين الحق والباطل وكان ذلك في سنة سبع أوثماني عشرة من الهجرة[18] .ولقد أخذت الرسائل منذ عهد عثمان، تتلون بألوان جديدة، فقد طفق بعض الصحابه يتراسلون فيما بينهم في أمور سياسية مختلفة، لاسيما سياسة الخليفة وتغييره وتبديله كما ناقشوا سياسة عماله وولاته في الأمصار الإسلامية.

رسائل علي بن أبي طالب:

تعدّ رسائل الإمام علي (ك) من الوثائق المهمة من الناحية السياسية والاجتماعية والدينية إضافة إلى جمال أسلوبها البلاغي وقيمتها الأدبية العالية.

وكانت رسائله موجهة إلى أمراء بلاده وقواده وعمال دولته أو إلى مجتمعات أو أفراد، سواء كانوا موالين له أو مناهضين لحكمه، من كان لهم ارتباط وثيق بالأحداث السياسية التي طرأت على الساحة الإسلامية من نزاعات وخلافات غيرت مجرى الحياة السابقة. كما ارتبطت رسائله بالشؤون الدينية والإدارية التي أصابها الانحلال والفساد، فانتخب لها الإمام في كتاباته للرسائل الموجزة، والمفصلة استجابة لمقتضيات الأحوال.

وكانت الرسائل تُكتب في الغالب بلغة مترسلة تختلف عن لغة الخطابة.لأنها في صدد تحديد وظائف تتطلب لغة واضحة الدلالة، صادقة اللهجة خالية من التراكيب الصورية.

فأصبحت الرسائل في أواخر العصر الراشدي وثائق تاريخية سياسية لها أهميتها البالغة في تصوير تلك الأحداث والكشف من أدقّ الأمور التي ألمت بالمجتمع الإسلامي ورسم ملامحه المختلفة. فكانت الرسائل الوسيلة المهمة التي لجأت إليها كل الأطراف السياسية المتخاصمة للتعبير عن نوازعهم ودعم حججهم وإبطال مزاعم خصومهم والكشف عن مساوئهم .

الحواشي:

[1] ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية.ص107

[2] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. ج8.ص260

[3] المرجع نفسه، نقلاً عن فرائد اللغة.ص293

[4] شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي. ص 19

[5] ابن النديم،محمد بن أبي إسحاق، الفهرست.ص8

[6] ابن وهب الكاتب،أبو الحسين إسحاق بن ابراهيم، البرهان في وجوه البيان.ص192

[7] المرزوقي، أبوعلي أحمد بن محمد بن الحسن، شرح ديوان الحماسة. ج1.ص18

[8] طه حسين، في الأدب الجاهلي. ص331، وكتابه من تاريخ الأدب العربي الجزء الأول.ص83

[9] زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع.ص42

[10] ابن الأثير، الكامل في التاريخ. ج1.ص520

[11] الجهشياري، أبوعبدالله محمدبن عبدوس: الوزراءوالكتاب.ص15

[12] الجهشياري، أبوعبدالله محمدبن عبدوس، الوزراءوالكتاب.ص16

[13] محمد كرد علي، امراء البيان. ص12

[14] سليم الحسنية، أضواء على صناعة الكتابة الدواوينية. ص26

[15] انظر أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشي، ج1، ص 89.أبوبكر محمدبن يحيى الصولي، أدب الكاتب، ص187

[16] الماوردي،أبوالحسن علي بن محمد، الأحكام السلطانية. ص 199

[17] القلقشندي، صبح الأعشي. ج 1.ص91

[18] الجهشياري، أبوعبدالله محمدبن عبدوس، الوزراء والكتاب، ص 19

المادة التطبيقية : فن التّرسل في العصر الجاهلي وصدر الإسلام

كتاب التحالف بين عبد المطلب بن هاشم وبين خزاعة:

" باسمك اللهم، هذا ما تحالف عليه عبد المطلب بن هاشم، ورجالات عمر بن ربيعة بن خزاعة:

تحالفوا على التناصر والمؤاساة، حلفاً جامعاً غير مفرق، الأشياخ على الأشياخ والأصاغر على الأكابر والشاهد على الغائب. وتعاهدوا وتعاقدوا ما شرقت الشمس على ثبير، وما حن بفلاة بعير وما أقام الأخشبان، وما اعتمر بمكة إنسان، حلف أبدٍ لطول أمدٍ، يزيده طلوع الشمس شدا وظلام الليل مدا.

وأن عبد المطلب وولده ومن معهم، ورجال خزاعة متكافؤون متظاهرون متعاونون، فعلى عبد المطلب النصرة لهم بمن تابعه على كل طالب، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده ومن معهم على جميع العرب في شرق أو غرب أو حزن أو سهل، وجعلوا الله على ذلك كفيلا، وكفى بالله حميلا "

<u>المطلوب</u>: اقرأ هذا النص قراءة وصفية تحليلية تحدد من خلالها نوع النص ومضمونه وفنياته.

ملاحظة: على الطلبة التفاعل مع المادة التطبيقية، وإرسال محاولاتهم على البريد الإلكتروني للأستاذة.